لغز الزمان

الثورة

الدكتور عبد الرحمن شهبندر

الملك جورج الخامس

والتاج البريطاني

تأليف جورج الخامس

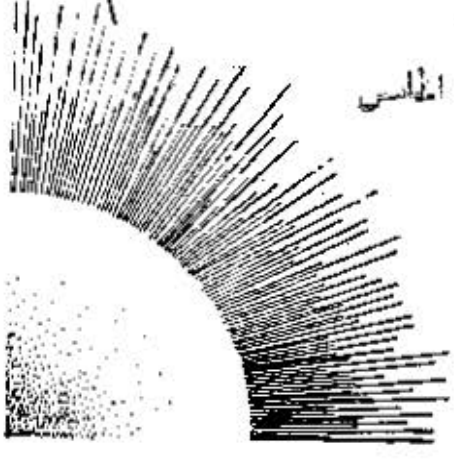

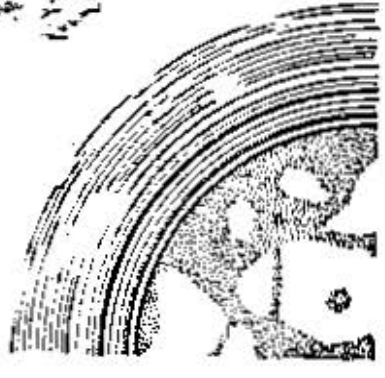

الثورة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

— ٣ —

الاعتراضات على الثورة

يرى أهل التتبع التاريخي ان الثائر نوعان اثنان ثائر تحلى بالميزات التي تجعله فوق البيئة التي يعيش فيها وهو مع ذلك ليس منها بالمكانة التي تمكنهُ من العمل النافذ فيها ، وثائر تلطخ بالمعايب والادران التي تجعله دون هذه البيئة ولكنه يطمع ان يحصل بواسطة الثورة على ما يحسبهُ حقاً له ضائعاً . ومن خير من استوفى هذه الاعتراضات حقها الكاتب الاميركي المعروف في العالم الاسلامي المستر (لوثر وب ستودارد) في كتابه «الثورة على المدنية» فقد سمى النوع الاول من الثوار «الرجل الاعلى» وهو في نظره فرد متفوق ممتاز بما تحلى بهِ من الخصائص ولكنهُ ويا للاسف مضلَّل مخدوع . وسمى النوع الثاني «الرجل الادنى» وهو فرد ليس فيه من بواعث الاحترام والتجلة باعث . قال (ستودارد) فالرجل الاعلى المخدوع هو ظاهرة من الظواهر الغريبة فقد وضعته الطبيعة في مقدمة المدنية وأحلتهُ في الصدر منها الاَّ انهُ انضمَّ الى اعدائها ، ويلوح القارىء ان مثل هذا الموقف الغريب لا يحتمل التعليل ولكن ذلك خطأ فالرجل الادنى من المدنية يثور عليها لانها ارفع منهُ كما ان الرجل الاعلى يثور عليها لانه أعلى منها ، يفعل ذلك اذا ما داخله القنوط من تقدمها البطيء وغشيته الرعشة من اخطائها المتكررة ، ومتى ما رعم ان العوامل الباعثة في قلوب الناس على العمل هي ذات العوامل النبيلة السامية التي تجيش في صدره فان أحلامه الذهبية النبيلة الهائمة بطلب الكمال تختصر لها طريقاً قريباً تقطعه الى عصر السعادة المنشود فتنضمُّ الى القوى الاجتماعية الثائرة من غير ان تعلم ان غايات هذه القوى تختلف عن غاياتها اختلافاً جوهرياً وان ها اتفقتا في النتائج بعض الاتفاق . وربما كان الرجل الاعلى المخدوع اعظم شخصية محزنة في التاريخ تثير العطف ، فاننا نراه وقد وقع في ملق الاشرار الاوغاد المبيتين واصبح أداة لتجويز الخطط المشؤومة وارتفع على الاعناق في أوائل الانقلاب باعتباره زعيماً لا يلبث أن يصل بهِ فوز الثورة ونجاحها الى نهاية فاجعة . وهو عند ما يتولاه الذعر من رؤية التوحش طارياً يحاول ان يوقف سيله الجارف ولكنهُ عبثاً يحاول ، فيصول عليه الرجل الادنى مزمجراً من بعد ما اتخذه درعاً يحتمي بها ويلقيها في الوحل تحت قدميه ، ولكن هذا الرجل الادنى ان عاجلاً أو آجلاً يغلب على أمره فتستجد الضوابط الاخلاقية ويستقر النظام الاجتماعي مرة اخرى

ولكنه أي نوع من النظام الاجتماعي يا ترى ؟ فقد يكون هذا الجديد أحط من القديم . ولا شك انها نادرة تلك الثورات التي هي شر محض ، فطبيعتها الهدامة نفسها تنطوي على بعض الترياق المساوي، القديمة المنتشرة وجرفها للخلاص منها ، ولكن ما هو الثمن ؟ هو الثمن المقوّم بالدم الغالي الذي يسفك في الثورة وبالتدمير والهلاك ، وليس ثمة طريقة ذات تكاليف باهظة مرهبة مثل الثورة، فالخسائر الاجتماعية والانسانية الناشئة عنها مخيفة عادة وكثيراً ما يستحيل تداركها واصلاحها

وفي الفرصة القصيرة التي تسنح للرجل الأعلى نجده يعمل عمله ويشفي غلته غير ملتفت الى العواقب مهما كانت خطيرة . أما وهو لا يكره المدنية فقط بل يكره المتمدنين انفسهم ايضاً فتراه يوجه جنونه ويلقي جام غضبه على الافراد كما يلقيه على الاوضاع ، ويكون الرجال الاعلون المتفوقون هدفه الخاص . وفلسفته المستولية على لبه في فهم الحياة هي بالاختصار المساواة دائماً وهو يسعى لتحقيقها بقطع جميع الرؤوس البارزة التي ترتفع عن رأسه ارتفاعاً بيناً . وقد تكون نتيجة هذا « الانتخاب الاجتماعي المعكوس » نقصاً فادحاً في الرجال المتفوقين بحيث يصاب الجنس البشري بفقر في الافراد دائم كما اصيبت اوربا عقب ديوان التفتيش الديني فيصبح عاجزاً عن تزويد المجتمع بالموهبة والنشاط الضروريين لاصلاح ما خربته يد الثورة ، وتكون المدنية قد اصيبت في مثل هذه الاحوال بالضربة القاضية فتتدنى الى أحط مما كانت عليه بصورة دائمة

هذه خلاصة رأي (لوثر وب ستودارد) ومن قال بقوله في الثورات مما ينطبق على الثورة الفرنسية اجمالاً والثورة الشيوعية خاصة ، وفيها ولا شك من الحقائق ما لا يماري فيه أحد ، غير ان هذه الثورات السياسية الاجتماعية الداخلية نوع والثورات لرفع النير الاجنبي الخارجي وانقاذ البلاد من ربقة الاستعمار نوع آخر . واننا ليس في وسعنا ان نتصور أحداً بالغاً ما بلغ من بيع وجدانه وايثار عقيدته يجرؤ على الحط من قدر تلك الجهود الجبارة التي يقوم بها المظلومون للخلاص من ظالميهم ، واذا صح قول (بورك) ان في كل ثورة شيئاً من الشر فلم لا يصح قولنا يا ترى ان في كل ثورة شيئاً من الخير ؟

على ان اعجابنا بالثورة الوطنية واشادتنا بالبطولة القومية لا يمنعاننا أن نعترف هنا ببعض عيوب الثورة اختبرناها بأنفسنا ورأينا نتائجها بأم العين وهي تحتاج الى الايضاح .. فقد يندس بين الرجال العاملين افراد لا قيمة لهم في ميزان الرجولة والاخلاق يتظاهرون بالحرص على المصلحة العامة اكثر منهم وبالبذل في سبيلها اعظم من بذلهم وهم ينقصهم كل شيء من ميزات « الرجل الاعلى » الا الطموح الذي لا ينتهي بهم عند حد ، بل رأينا اسوأ من ذلك ، رأينا الخادم الرقيع العامي في تصوراته المتبذل في حركاته وسكناته ، الذي لا يكاد يؤلف جملة صحيحة التركيب والذي ينخر جمجمته مرض الخُنَّزُوانية أو (المجالومانيا) ويُقرح لسانه مرض البذاءة أو (الكوبرولاليا) لا يحجم أن يحشر نفسه بين العاملين من مجاهدين وعلماء وحكماء وحضوره مجالسهم ، وقد يغضون الطرف عنه

خشية سفهه وقلة أدبه ، وفاتهم أن السكوت عن السفه هو مثل الصدقة في غير موضعها تشجيع للاشرار وان ترك الحبل على غارب أمثاله هو فتح المجال لمن يدنس بسوء سمعته ويلطخ بقذارته الاوساط الوطنية التي يجب ان تبقى مقدسة . وغني عن البيان ان الذين هم على هذا النمط هم الذين حملوا الكاتب العبقري الكبير (صموئيل جونسون) على القول « ان الوطنية هي الملجأ الاخير للرجل السافل »(١)

اننا نعترف ان هذا كله عيب في الثورة ولكن ماذا يضير النهضة العظيمة ان يندس فيها الدخلاء ؟ ألم يتظاهر المنافقون في صدر الاسلام بالدخول في الاسلام ؟ وماذا يعيب الشمس ان يشاهد الناظر على وجهها سفعاً اذا كانت هذه السفع لا تحول دون بثها حرارتها الحيية وارسالها أشعتها اللامعة ؟ ثم ان ظهور الطفح على الجلد في بعض الحوادث التي يعطى فيها المصل الشافي من الامراض الخطيرة لا يمنع الطبيب الحاذق من استعمال المصل الواقي من الدفتريا مثلاً

ويضاف الى ما تقدم ان بعض الوصوليين المستهترين النفعيين الخالين من جميع الوسائل التي تمكنهم من الحصول على الكسب بالطرق المشروعة الشريفة يجدون في الثورة باباً للرزق فينضمون الى صفوفها ولا يزالون ينفخون في نارها ما دامت مصالحهم مضمونة غير مبالين بالمصلحة العامة التي من اجلها اعلنت الثورة ، وشر من هؤلاء على التحقيق قوم يجعلون انفسهم وسطاء بين الثوار والسلطة العاتية لا لمصلحة البلاد وتقريبها من غايتها السامية بل لضمان مقاعد يجلسون عليها ومصالح خاصة يقبضون على ناصيتها وهكذا لا يتحفظون ان يتخذوا من اشلاء شهداء الوطن سماداً لاراضيهم ومن دمائهم ريّا لبساتينهم

اما اولئك الذين يتحينون اخفاق الثورة للنيل من كرامة الثوار واقصائهم عن حظيرة الوطن فليس في المعجم الذي تعلمناه مفردات تدل على التدني الاخلاقي الذي بلغوه

ومن الاعتراضات التي يوجهها انصار التدرج السلمي الدائم الى الثورة انها تؤدي عادة الى الرجعى ورد الفعل وبرهانهم على ذلك ان ما من حكومة تقف عثرة في سبيل التقدم الا قاومت بالشدة كل انقلاب ، بيد انها اذا لم تبلغ من القوة شأواً يمكنها من سحق الثورة واخماد انفاسها فان عاقبة المقاومة التي تبديها تكون اضرام نار الحقد والقسوة في قلوب الثائرين واخراج الامر من يد المعتدلين والمتشددين الى المتطرفين المتعجلين . ففي اوائل الثورة الفرنسية مثلاً كانت الاضطرابات قليلة غير ان اعلان ملوك اوربا الحرب على فرانسة ادى الى ظهور حزب « الجيروندين » الخياليين على مسرح السياسة الفرنسية اولاً ، ثم ظهور « اليعقوبيين » القساة الشرسين بعدهم مما كان السبب الاكبر في احداث عصر « الهول » المشهور . بل ان انهيار النظام القائم كافٍ وحده لتخويل اشرس الزعماء

(١) "Patriotism is the last refuge of a scoundrel." (Remarks, by Samuel Johnson)

الشعبيين اعظم فرصة للاستبداد حتى لو لم تكن ثمت مقاومة محسوسة من الحكومة السابقة . اضف الى شراسة هؤلاء الزعماء الحافلة بانواع التحدي ان المصانع والمتاجر في ابّان الشدائد والاهوال تقف فتقل البضائع وترتفع الاسعار ويلوح شبح المجاعة على الآفاق ، وقد لا تؤثر هذه الشدائد في الزعماء القابضين على ناصية الحال ولكنها شديدة الأثر في الدهماء ، فالبؤس والاضطراب والتقلقل تفعل فيهم فعلاً كريهاً لان معظمهم يتوقع من الحكومة ان يتمتع بالأمن والنظام علاوة على سائر تلك الخدمات المطلوبة منها . لا جرم ان هؤلاء الدهماء ينقلبون على تانئي بوق الاضطراب ومسبي الاهوال فتثبت الرجعى وينشط رد الفعل من عقاله ويأخذ الرجعيون في تنظيم امرهم حتى ينالوا التأييد الكافي فتهب ريحهم الصرصر على الثورة وزعمائها فتكتسح من تكتسحه ولا يلبث الموظفون القدماء المطرودون ان يعودوا الى مناصبهم ويعتلوا عروشهم مرة اخرى

الى هنا نحن نجاري خصوم الثورة فيما نقلناه عنهم ونعتقد ان براهينهم تنطبق في الاكثر على الازمنة الماضية وعلى الثورات التي ادار دفتها ضعفاء العزيمة قليلو الثقة بانفسهم وبالعاملين معهم امثال (كرنسكي) في روسيا ولكن متى كان على رأس العمل اناس من اهل الحزم والعزم قد قنعت البابهم بوجوب انقاذ امتهم من الصغار ولعنة الاستعمار امثال (جورج واشنطن) في الماضي و(دي ڤاليرا) و (مصطفى اتاتورك) في الحاضر ، او اناس رأوها ينخرها سوس الشقاق الداخلي والمذاهب السياسية البالية امثال (موسوليني) و (هتلر) او اناس آمنوا بالاصلاح العالمي الذي يجلبهُ مذهبهم ويؤدي اليهِ انقلابهم امثال (لنين) و (تروتسكي) فدسائس الظالمين المستكبرين وخزعبلات القياصرة والسلاطين وشعوذات الدجالين لا تغني فتيلاً

الثورة والتطور العضوي

متى حاول الكتّاب اظهار البون الشاسع بين الجسم الحيواني او الكتلة العضوية وبين المجتمع الانساني او الجمعية البشرية فان في التشابه بينهما ما يفتق الذهن ويؤدي الى ادق الاستنتاجات الصحيحة . فمن ذلك ان (دارون) بعد ما وضع مذهبه في النشوء والترقي ونشره في الاوساط العلمية ترجحت فكرة التغير البطيء عند علماء الحياة حتى صاروا يزعمون ان كل تدرج تقابلهُ بتغيير بطيء يطرأ على الكتلة العضوية نباتية كانت ام حيوانية في حقبة من الزمن تحسب بالوف السنين الى ان يتم هذا التغيير فيصير ملموساً يؤدي الوظيفة الحيوية المستحدثة التي يتطلبها المحيط الجديد . فاذا صح ان الجمعية البشرية كتلة عضوية او جسم حيواني كما يذهب اهل النظر البيولوجي من الاجتماعيين تنطبق عليه قواعد الحياة فان كل تغيير فيها يحتاج على هذا القياس الى الوف السنين كي يصير ملموساً لذلك تكون الثورة بهذا المعنى ليست عبثاً فقط بل غير ممكنة لان الطفرة كما كانوا يقولون الى اجل قريب محال . ولكن الطفرة صارت في علم الحياة قاعدة من قواعد العلم وما كان محالاً

بالامس اصبح لازماً اليوم لان التتبع الدقيق دلّ على ظاهرة في علم الحيوان والنبات من اهم الظواهر وهي حدوث ما يدعى Mutation اي التحول الفجائي وهذا هو الطفرة بعينها وتعريفها ان يحدث في النسل الطبيعي المعتاد من حين الى آخر ولادة مخلوق يختلف عن جنسه في صفة او اكثر اختلافاً عظيماً بيّناً ، ثم اذا ما توالد هذا المخلوق العجيب يحفظ في نسله تلك الصفات التي ظهرت فيه فجأة . ويجوز لنا ان نعبر عن هذا الحادث الحيوي المفاجيء بالعبارة الاجتماعية السياسية الآتية وهي حدوث ثورة في بناء سلالة هذا المخلوق حوّلته فجأة من حال الى حال

والآن فاذا كانت الجمعية البشرية جسماً حيوانيًّا تنطبق عليه قواعد الحياة الاساسية فالثورة فيه ليست جائزة فقط بل ضرورية ايضاً لان البيولوجيين كما قلنا يعتدّون بالتغير الفجائي وهو الطفرة كما يعتدّون بالتغير البطيء . وكما يحدث الانتقال الفجائي في السلالة من ولادة مولود جديد ذي خصائص مغايرة لسلفه ينقلها بالتوالد الى خلفه، كذلك يحدث الانقلاب الاجتماعي الفجائي من حدوث ثورة تقلب النظام رأساً على عقب وتحتفظ بالتغير الطارىء وتنقله للاجيال القادمة . وعلى لنين وتروتسكي وستالين وكمال اتاتورك وعصمت ان يزوّدوا علم السياسة والاجتماع بتجاربهم الثورية الدالة على امكان الطفرة وان الرجعى بالمعنى العلمي مهما كانت عظيمة لن تعود بالروس والترك الى ما يشبه عهد القياصرة من آل رومانوف والخلفاء من بني عثمان

وفي مقدمة البراهين التي يوردها اعداء الثورة والقائلون بعدمها البرهان المأخوذ من الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، فان الفرنسيين في نظر هؤلاء النقاد قد عادوا الى الشيء الكثير مما سفك الثوار دماءهم للخلاص منه والقضاء عليه ، ولكن فاتهم ان المبادىء التي اعلنتها تلك الثورة للخلاص من الظالمين على انواعهم تعمل اليوم كالسحر حتى في البلدان الخاضعة للحكم الفرنسي نفسه، والوطنيون في المستعمرات ينظرون بلهفة وشوق الى انهيار النظام السياسي الجائر المنصرف في اموالهم وارواحهم واقدس مقدساتهم نظرهم الى انهيار (الباستيل) في اليوم الرابع عشر من يوليو سنة ١٧٨٩ كاهيك بتلك الآراء التي بثتها الثورة في كل دولة حية وسلطتها على كل قلب شاعر من ابطال تلك الامتيازات الجائرة التي كانت تتمتع بها الطبقات العظامية وتحقيق حرية اللسان وحرية القلم وحرية الوجدان وتأييد ارادة الشعب . اما اذا اخفقت الثورة في عاجلها وآجلها ولم تأت بالنتيجة الطيبة التي توقعها منها الزعماء فقد تكون العلة كل العلة في الامة نفسها لان الامة اذا كانت عقيمة فقد يضيع سيل ثورتها الغزير في رمالها القاحلة ، والزعيم مهما كان عظيماً يعجز عن احياء الميت من الجمادات كما يعجز الطبيب مهما كان حاذقاً عن احياء الميت من الافراد

ومن الاعتراضات التي يوردها اعداء الثورة قولهم ان كل انقلاب تحدثه الثورة بالعنف يمكن الحصول عليه بالطرق السلمية وذلك بمجرد قرار يصدر في مجلس النواب او بتعديل طفيف في دستور البلاد لذلك تكون الشدة وما احدثته من دمار وسفك دماء فضلة زائدة ما اغنى الناس عنها .

ولعمري ان في هذا البرهان شيئاً من الوجاهة والحق في البلدان التي تتمتع باستقلالها ولها رأي عام خبير يبدو على ألسنة نوابها المنتخبين انتخاباً حرًّا وأما حيث يكون الشعب اداة مسخرة لاقرار مطالب الغالب ، وارادته تنمحي بجرة قلم يجرها الحاكم الاجنبي ، او حيث تكتزف الامة طبقتين اثنتين طبقة الاقلية من الغالبين الانانيين النفعيين الذين استماتوا بالتقاليد العتيقة المحرمة والعقائد التي من شأنها اماتة الطموح واطفاء شعلة النبوغ كما كان الحال في زمن السلطان عبد الحميد في الدولة العثمانية ، وطبقة الاكثرية من المحرومين المسخرين عمالاً حقيرين عند اسيادهم حيث — تكون حالة الشعب كما وصفنا فربما كانت الثورة السبيل الوحيد للنجاة

ويقول خصوم الثورة ان الثورة مهما عظمت وبلغت من الشدة فليس في وسعها ان تغير الشعب نفسه وانما تغير الدستور والحكومة فقط وهذا كلام يجب ان نتلقاه بحتراس شديد لان تاريخ الانقلاب لا يطابق هذه النظرية دائماً فالاسلام مثلاً كان من بعض الوجوه ثورة دينية اجتماعية سياسية وهو يختلف عن كثير من الاديان الاخرى بميزة جوهرية من الطراز الاول وهذه الميزة هي سرعة انتشاره والانقلاب العملي الذي احدثه ، ومهما تفنت المحافظون من علماء الاجتماع وبالغوا في قيمة التغير البطيء فليس في وسعهم ان ينكروا ان قصور كسرى وقيصر لم تدكّ فقط بل تغير الناس الذين كانوا يترددون اليها ايضاً في نحو جيل من الزمن

وغير نكير ان بعض العثمنات والتقاليد القديمة بقيت في المملكة الاسلامية الحديثة ولكن نسبتها الى ما استجد وطرأ نسبة ضئيلة على رغم المتظاهرين بالدين الجديد من الشعوبية المضمرين في الباطن البغضاء للعرب والحقد على ابطالهم . وأقل ما يقال في الثورة الآن انها تجربة في مختبر المجتمع البشري ومن التعصب الاحمق ان يحكم المرء على بطلانها قبل التحقق من نتائجها

وقد قيل لنا ان الخطأ الاكبر الذي يرتكبه دعاة الثورة انهم لا يفرقون بين الشعب وبين النظام الذي يسير عليه هذا الشعب زاعمين ان مجرد استتباب السنة الصالحة يجعل الشعب صالحاً وان المجتمع يمكن دفعه الى الامام برفسة واحدة من الوراء وان التتبع التاريخي دلهم على ان الشريعة متى كانت ارقى من الرأي العام في الشعب لا يمكن تطبيقها وفي الطاقة جعل الشريعة موافقة للرأي العام ولائقة به ولكن ليس في الطاقة عكس ذلك اي جعل الرأي العام على غرار الشريعة ومطابقاً لها ، ويذكرون ان السبب الذي يجعل الرأي العام قليل التأثر بتغير الحكومات هو سبب عميق متأصل في طبيعة الانسان ومرتبط بما للعادة من سلطان عليه نافذ بحيث يحول هذا السلطان دون التغيير الفجائي لان كل تقدم في المدنية محسوس ينطوي على تغير في الاخلاق والعادات والتقاليد والمعارف والنظرات وهذا جميعاً لا يتيسر بقفزة واحدة . وأوردوا من البراهين على ذلك ان سن الانظمة الجديدة لا يصيّر الكسالى مجتهدين ولا النفعيين ايثاريين ولا الجهلاء من حملة العلم ولا الخشناء من اهل التهذيب ولا من تحر اخلاقهم سوس الفساد اعمدة الاصلاح ، وان التغيير الذي

يتطلب من الخصائص في الشعب والمزايا في افراده ما هو فوق طاقتهم وأعلى مما يتصفون به ويحملونه في نفوسهم محكوم عليه بالاخفاق

اننا لا ننكر ابداً ان في هذا الاعتراض شيئاً من الحق وجيهاً ولكنه في الاكثر حق ينطبق على الاعصر التي انقضت لا على العصر الذي نعيش فيه وذلك لان وسائل النشر والاقناع وتغيير العقائد وطرائق التعليم وبث الدعايات والمواصلات المعنوية والمادية بأنواعها اصبحت الآن من السهولة والتمكن والنفوذ بحيث يتعذر على ارباب المصالح الرجعية ان يسبلوا ستائر اغراضهم على الابصار او ان يضعوا الكمائم في الافواه ليحولوا دون الصياح بالحق ، ولا شك ابداً في ان تطبيق القانون السويسري في الاحوال الشخصية في تركيا الحديثة مثلا هو ثورة شرعية تمت بين عشية وضحاها واذا دام (اتاتورك) قابضاً على ناصية الحال مدة وجيزة من الزمن اخرى فسيتعود الجيل القديم بهذه السرعة الفائقة الزواج الموحد والطلاق المعدل مرغماً ، وأما الجيل الجديد فيعد هذه الشرعة المبتدعة تراثاً من الآباء والجدود ، وهكذا ينتقل النزك في سنوات معدودة في وضع الزواج — وهو وضع محافظ — انتقالاً اقل ما يقال فيه انه ثورة اجتماعية

***

من المؤسف جداً ان شجرة الحرية كما قال (توماس جفرسون) يجب ان تلتعش من حين الى آخر بدم الوطنيين والمستبدين وان هذا الدم هو سمادها الطبيعي ، ولو فكر الذين يطمعون في استعباد الاقوام واستثمارها ان الجماعات اشد حرصاً على حريتها من الافراد وان الرق الحديث — رق الشعوب والاقوام الراقية — هو اشنع من رق الافراد وأضر بمصالح المجتمع وأشد خطراً على الحضارة للتقلقل الدائم الذي يحدثه فيها ما كانوا اندفعوا في هذه البسطة السياسية المخوفة بالممالك

وعلى كل حال فالرجل المتحلي بالشجاعة في البلدان التي تنوء بالمظالم لا تستطيع القوة الغاشمة بالغة ما بلغت من الجور والعسف ان تكمم فمه عن الافصاح عما يجول في نفسه من الهواجس والافكار وعن الثورة التي تضطرم في فؤاده على الاوضاع التي تغله وتغل قومه وتقف عقبة في سبيلهم ، وفي طاقته ان ينادي كما نادينا في اواخر الشهر الماضي في القاهرة في احدى الحفلات فيقول : « ارتفعي يا بنادق ، وفعقعي يا حراب ، وفرقعي يا قنابل ، واخرجي يا سباب البحر ايتها الاساطيل العاتية واملأي كبد السماء ايتها الطائرات المستكبرة ، وميدي يا جبال الوطن العزيز بضعاف النفوس من ابنائك ، اما نحن فكما قال (فردريخ نيتشه) في قصيدته الغنائية[1] سنجلس على الرغم من ذلك كله بين فكي التنين ونتربع على انياب الكارثة ونصيح بأعلى اصواتنا وملء افئدتنا فلتعش الحرية وليحيى الاستقلال وليهنأ الوطن المقدس بأبنائه البررة الاوفياء »

(١) German Ecstasy of Song

الملك جورج الخامس

والتاج البريطاني[1]

[على ذكرى الاحتفال بعيده المئوي]

في الاسبوع الثاني من شهر مايو الماضي احتفلت الامبراطورية البريطانية بانقضاء ربع قرن على اعتلاء الملك جورج الخامس اريكة الملك. وقد خلف الملك جورج والده الملك ادوارد السابع عند وفاته في ٦ مايو سنة ١٩١٠ وكانت جدته الملكة فكتوريا من قبلهما قد ارتقت العرش سنة ١٨٣٧ فبين ارتقائها العرش والاحتفال بانقضاء ربع قرن على ملك حفيدها قرن من الزمان تقريباً.

***

في خلال هذا القرن انثالت طائفة من اعظم عروش العالم واقدمها ، وحلت الحكومات الجمهورية محل الحكومات الملكية في فرنسا واسبانيا والبرتغال، والحكومات الدكتاتورية في امبراطوريتين عظيمتين هما المانيا وروسيا ، وتفرقت البلدان التي كان يجمعها صولجان آل هبسبرج بعضها عن بعض . ولكن العرش البريطاني اصبح في هذا القرن نفسه اشد رسوخاً مما كان . فالمؤرخ يرى التاج البريطاني ، في سنة ١٩٣٠ ارسى منه في سنة ١٨٣٠ او سنة ١٨٧٥ عندما كان بعض الانكليز وفي مقدمتهم جوزف تشمبرلين — والد السر اوستن تشمبرلين والمستر نفيل تشمبرلين وزير مالية بريطانيا الآن — يُسمّرون جهاراً باسم الجمهوريين . بل ان المرء كان له ان يتساءل في القرن التاسع عشر ، هل يتاح لابن الملكة فكتوريا ان يرتقي العرش ، ولكن فلما نجد الآن احداً من الانكليز يرتاب في ان ابناء الملك جورج الخامس صوف يتمتعون بتراثهم الملكي

فالولاء الملكية في انكلترا ليس مسألة حزبية . والعمال هناك يشاطرون المحافظين هذا الولاء . ويروى ان المستر مكدونلد دعي في سنة ١٩٢٨ الى باريس ليخطب في جماعة من النواب الفرنسيين اكثرهم من الاشتراكيين ، في سياسة حزب العمال ، وكانت وطأة المرض مشتدة على الملك جورج حينئذ ، فلما نهض المستر مكدونلد للمحاضرة قال : « ايها السادة قبل ان ابدأ في معالجة موضوعي ارى من الخير ان نتريث قليلاً ضارعين الى الله لحين بالشفاء على ملكنا ، الذي يصارع الموت الآن »

---

(١) من بحث للكاتب الفرنسي اندريه موروى صاحب المؤلفات النفيسة في شلي ودزرائيلي وبيرون وذكرى

فدهش كثير من الحاضرين ولو انهم كانوا يتهمون الامة الانكليزية لما دهشوا . فالحب للاسرة المالكة هناك اقوى واعم بين جمهور الامة منهُ بين الاهالي [1]

وقد تخيَّل برنارد شو في احدى رواياته التمثيلية ، بريطانيا وقد انقلبت شيوعية ولكنها مع ذلك ظلت محتفظة بملكها وكان ملكها من احب الناس الى الامة . وهو تخيُّل قد لا يكون مستحيلاً

فيجدر بنا ان نبحث عن الصفات الخاصة التي اتصفت بها الملكية البريطانية والحوادث المؤاتية التي مكَّنت العرش ووطدت مقامهُ في بريطانيا . ما مقام الملك في نظام الحكم البريطاني ؟ واية خدمات يؤديها ؟ وعلينا ان نجيب عن هذين السؤالين قبل ان نجمل حكم الملك جورج الخامس

ان الحكم الملكي الدستوري ، كمعظم المنشآت البشرية ، لم يجيء نتيجة لتفكير الناس الواعي. فالملك جورج الاول الذي دعي الى العرش من هانوفر كان لا يتكلم الانكليزية فتخلى عن رآسة مجلس الوزراء في القرن الثامن عشر . وكذلك انفصلت السلطة التنفيذية في البلاد الى جانبين ، من دون اي نضال او نزاع . ولما كانت الملكة فكتوريا امرأة ، اصبح الولاء للعرش نوعاً من الشعور الرومانطيقي . ولما كان زوجها البرنس البرت متصفاً بجميع الفضائل العائلية ، اصبحت الاسرة المالكة في نظر شعب متدين ، موضوعَ حبٍ مقرون بالحنان . وقد توالى على العرش البريطاني ثلاثة ملوك — فكتوريا وادورد السابع وجورج الخامس — اشتهروا بالحكمة والاعتدال والقدرة على التجرُّد عن النزعات الحزبية ، فأصبح للملك عمل مفيد لا يستغنى عنهُ . ولو كان في انكلترا في القرن التاسع عشر ملك حاول ان يحكم حكماً مطلقاً لتحوَّلت انكلترا الى جمهورية . ولكن أسرة كوبرج المالكة ، ادركت في بريطانيا والبلجيك ، ادراكاً تاماً سرَّ النظام الملكي الدستوري

فما هو هذا النظام ؟ وما القواعد التي يقوم عليها ؟ القاعدة الاساسية هي ان يكون الملك دائماً حكماً محايداً . والقاعدة الثانية ، ان يستلم الملك بالمقترحات التي يعرضها وزراؤه . وفي ذلك يقول بايجهوت : عليهِ أن يوقع الامر باعدامهِ اذا قدَّم اليهِ بعد موافقة المجلسين عليهِ » . وقد كتب المستر اسكويث في مذكرة مشهورة .. « على التاج ان يعمل وفقاً لمشورة وزرائهِ الذين يعلنون في وقت تقديم المشورة ثقة مجلس النواب وسواء كانت هذه المشورة تتفق مع رأي الملك أو لا تتفق . ان الوزراء يعترفون باحترام عميق الى نقد الملك واعتراضه ويخصونهما بعناية عظيمة ، ولكن القرار الاخير يجب ان يبقى لمجلس الوزراء . لان مجلس الوزراء لا التاج ، مسؤول امام البرلمان . وبتطبيق هذه القاعدة تطبيقاً دقيقاً يستطاع ان يحفظ التاج فوق شدائد المعارك السياسية »

---

(١) المنتخب : تراءى من ايام ان انكليزياً من رجال الاعمال كان يستأجر كل صباح سيارة توصله الى مقر عمله في ذات يوم اذ كانت وطأة المرض شديدة على الملك قال الرجل لسائق السيارة عرج بنا على قصر بكنغهام لاني اريد ان اقرأ النشرة الطبية الاخيرة ففعل ولما وصل الرجل الى مقر عمله كانت قيمة اجرة السيارة قد بلغت اربعة شلنات وهي عادة ثلاثة فقال السائق « ثلاثة شلنات يا سيدي فقط » فقال الرجل « وتسكتنا عرجاً عن طريقنا العادي ويجب ان ادفع الفرق » فقال السائق بلهجة التزجية « أليس هو ملكي كما هو ملكك »

يقابل ذلك انهُ لا يغتفر لوزير ما ان يزجَّ اسم الملك في احدى هذه المعارك . وليس عليهِ فقط أن يمتنع عن التصريح بما قاله الملك حرفيًّا ، وعدم اقحام اسم الملك في الشؤون الحزبية ، بل الواجب على رئيس الوزراء ان يتحمل كل المسؤولية الخاصة بأعمال وزارته ، وان لا يحاول الاحتماء بالعرش

فما هي أعمال الملك؟ يقول بايجهو انهُ يحتفظ بثلاثة حقوق: أن يشاوَر. وان يشجِّع وان يحذِّر. فلا يمكن أن يعمَل شيء في المملكة من دون اطلاع الملك عليهِ ، وملوك انجلترا قد طلبوا — وكانوا على حق في ذلك — بأن يحتفظوا بهذا الحق كاملاً غير منقوص . وبفضل الحقائق التي يطلعهُ عليها وزراؤه، مضافاً اليها الآراء التي يكوِّنها بالاصغاء الى زعماء المعارضة من دون أن يطلب مشورتهم ، يستطيع الملك في الازمات الخطيرة ان يحكم حكماً متزِّهاً بصفتهِ مشاهداً محايداً. ولكنهُ لا يستطيع ان يحول دون شيء تقترحهُ الوزارة ويقرّه البرلمان . فقد يقول الملك لرئيس وزرائهِ ، انك مقبل على خطة خطيرة. واني لاذكر سابقة من هذا القبيل تعيث على الامم . لاريب في انك أنت المسؤول، واذا اصررت على هذه الخطة كان عليَّ ان اوقع . ولكنني احذّرك . فانك ترتكب هفوة

هذه الآراء يتقبلها رئيس الوزراء باحترام عظيم من مليكٍ لما لهُ من المكانة والهيبة ولانهُ يكسب بفضل استمراره في منصبهِ ، خبرة أوسع نطاقاً من خبرة أي وزير من وزرائهِ . وقد ضرب السر موريس المورس مثلاً لتفسير عمل الملك هذا بشركة مساهمة فقال : لنفرض ان الامة شركة مساهمة وان مجلس الادارة المهيمن على شؤونها هو البرلمان . فالملك كان أصلاً صاحب الشركة فتنازل عن ملكهِ واصبح لاحقَّ لهُ في الاقتراع ولكنهُ مع ذلك لا يزال أعلى المستشارين مقاماً . فكل شيء يعمل باسمه

وهنا يبادر الى الذهن السؤال التالي : ما الفائدة من الاحتفاظ بصاحب الشركة الاصلي في مقامهِ الجديد. الفائدة منوّعة لا ريب فيها. فنجاح النظام الملكي الدستوري في بريطانيا والبلجيك قائم على اربع حقائق :

اولاً — أن الجماهير تفضل ان تمنح ولاءها لشخص معين دون نظام عام — فالبرلمان يتناول في الغالب الآراء المجرّدة التي لا يدركها الجمهور . ان النزعة الاميركية الجديدة في الحكم المعروفة باسم « النوزيمة الجديدة » تتمثل للاميركيّ في شخص الرئيس روزفلت ، والفاشستية في شخص موسوليني . وهذا الميل لا يختلف في الشعوب البدائية عنهُ في جماهير الامم المتحضرة . فقد كنت في خلال الحرب ضابط اتصال بين الجيش الانكليزي والفرنسي وكان الزعماء الافريقيون في بعض فرق الجيش البريطاني يرفضون أن يجددوا عقودهم الاّ في حضرة الملك . فكان قواد الجيش البريطاني ينتهزون فرصة زيارة الملك جورج للميدان الغربي ويأتون بهؤلاء الزعماء اليهِ

ثانياً — ان الشعب يتتبع بعناية عظيمة اعمال الاسرة المالكة . ومن شأن هذه العناية في بعض الاحيان تقريب حياة الاسرة المالكة الى حياة الشعب الخاصة . فاذا تزوج أحد الامراء ، كانت الخطة عيداً قوميًّا ، واذا كان الزواج قائماً على الحبّ ، كزواج دوق يورك وزواج دوق كنت ، وكانت العروس جميلة ، استولى على الجماهير نوع من الخبل النفسي

ثالثاً — ان التقاليد التي ترعاها الاسرة المالكة ، وقيود وراثة العرش التي تتقيد بها ، من شأنها ان تسمو بنفوس اعضائها فوق الشهوات الدنيئة كالغيرة والحسد وحب الاذى

رابعاً — اذا عرف اعضاء الاسرة المالكة ان ينهضوا بواجبهم نحو الأمة اصبحت الاسرة مرجعاً لحياة الامة الاجتماعية والادبية . فهي تحافظ على التقاليد المحترمة وتعد أي انقلاب مفاجيء في آداب السلوك . وقد أدّت الاسرة البريطانية المالكة هذه الناحية من عملها على أتم وجه وأوفاه

***

هذا هو عمل الملك الدستوري بوجه عام . ولكن الملك في انكلترا مضطر أحياناً وفي احوال معينة ، ان يشترك اشتراكاً فعّالاً في شؤون الدولة

فالقاعدة ان الملك يختار رئيس وزرائه . ولكن اذا كانت اكثرية مجلس النواب تابعة لحزب واحد فزعيم ذلك الحزب يصبح بطبيعة الحال رئيساً لمجلس الوزراء . وليس للملك ان يتجاهله . وقد حاولت الملكة فكتوريا — وكانت لا تميل كثيراً للغلادستون — ان تفضل بعض اتباعه عليه ، فذهبت محاولتها ادراج الرياح ، لان مفاتحها لهم في هذا الموضوع كانت تفضي الى التماس العذر . وكان غلادستون في كل محاولة من هذا القبيل يطلب في النهاية لتأليف الوزارة . فاذا انقسم حزب كبير الى فريقين واصبح زعيم الحزب لا يملك ولاء جميع أعضائه ، فيستطيع الملك ان يرشد زعماء الفريقين الى الطريق الصواب من دون ان يفرض مشيئته عليهم . وهذا ما وقع في سنة ١٩٢٣ لما اضطر المستر بونارلو ان يستقيل من رآسة الوزارة لمرضه . فقد كان اللورد كرزون مقتنعاً أن رئيس الوزارة لا يمكن أن يكون احداً غيره . ولكن المستر بلفور وغيره من زعماء المحافظين بينوا للملك أن طبع اللورد كرزون لا يتلاءم ومقتضيات المنصب وكانت النتيجة ان استدعي المستر بولدوين الى قصر بكنهام فقطع الملك العقدة بسيفه

والقاعدة كذلك ان الملك له حق حلّ مجلس النواب . ولكنه في الواقع لا يستطيع ان يحلّ مجلس النواب من دون ان يشير بذلك رئيس وزرائه . الاّ إنهُ قد تجيء احوال تسمح فيها مسألة حل المجلس مشكلة معقدة . فاذا كان في المجلس ثلاثة احزاب بدلاً من حزبين ، فقد يتفق ان يكون حزب رئيس الوزراء — كحزب مكدونالد الآن — اقلية في المجلس . وقد يشير رئيس الوزراء بحل المجلس في وقت يكون فيه السبيل قد تمهد لائتلاف الحزبين الباقيين والنهوض بشؤون الحكم من دون انتخاب جديد . في هذه الحال تكون كلمة الملك المرجع الاخير

والملك وحده الحق في اصباغ القاب الشرف على العوام . وهذا الحق على ضيق نطاقه ، يمكنه من ان يقترح اسماء او ان يرفض اسماء اخرى مقترحة لهذه الالقاب . ولكن الفائدة الكبرى من هذا الحق هي ان الحكومة تستطيع ان ترجع الى الملك في ممارسته عند ما يرفض مجلس اللوردات الموافقة على مشروعات اقرها مجلس النواب . فقد حدث مرة ان مجلس اللوردات رفض

ان يقر الميزانية فاضطرت الحكومة القائمة ان تهدد مجلس اللوردات بتعيين لوردات جدد يكفي عددهم لمنح الحكومة أكثرية في ذلك المجلس . ولكن رئيس الوزراء لا يستطيع ان ينفذ تهديداً من هذا القبيل الا اذا وافق الملك عليه . وهذه المشكلة توقف الملك احياناً موقفاً حرجاً ، لانه من ناحية ، رئيس احيان قومه بطبيعة مقامه ، ومن ناحية اخرى يرغب في ان يتصرف تصرفاً دستورياً لا غبار عليه . وسوف نرى في صفحة تالية كيف تصرف الملك جورج الخامس عندما واجهته حالة من هذا القبيل

ثم ان للملك ، اذا اقتضت الحال ، حقاً مبهماً الآن لقلة الاستناد اليه ، ولكنه فعّال في الملمات وهو ان يكون وسيطاً بين الاحزاب السياسية ، اذا بلغ النزاع بينهما مبلغاً من الحدة والعنف يهدد سلامة الدولة . فالملك ادورد السابع ، لم يحجم عن دعوة المستر اسكوث رئيس وزرائه ، والمستر بلفور ولورد لنسدون زعيمي المعارضة ، الى قصر بلمورال لتخفيف صورة النزاع عند ما اشتد بين مجلسي النواب واللوردات

وكذلك نرى ان عمل الملك معقد وذو شأن خطير في آن واحد . فهو رئيس للدولة لا سلطة واسعة له كسلطة رئيس الجمهورية الاميركية الذي يجمع بين رآسة الدولة ورآسة السلطة التنفيذية — اي بين عمل الملك وبين عمل رئيس الوزراء — ولكن سلطة ملك انكلترا اوسع نطاقاً من سلطة رئيس الجمهورية الفرنسية . فهذا لا يستطيع ان يحل البرلمان الا بعد موافقة مجلس الشيوخ . ومجلس الشيوخ اذا عارض في امر افرد النواب فليس لرئيس فرنسا ان يعين شيوخاً تتغلب بهم الحكومة القائمة على معارضة المجلس لها

فاذا اضفت الى سلطة الملك الدستورية هيبته التي تأذن له في التوسط في بعض شؤون السياسة الخارجية وأمور الجيش ، ادركت ان للملك الدستوري في بريطانيا شأناً كبيراً في تسيير دفة الحكم

فلننظر الآن في حكم الملك جورج الخامس ، محاولين ان نبين كيف مارس الملك هذه الحقوق وكيف نهض بهذه الاعمال في خلال ربع القرن المنصرم

***

كان جورج الخامس الابن الثاني للملك ادورد السابع . فلما توفي شقيقه الاكبر ، دوق اوف كلارنس اصبح ولياً للعهد . وكان قد تلقى العلوم التي تعدّه للانتظام في السلك البحري ، وقضى معظم حياته قبل وفاة شقيقه بعيداً عن البلاط وقد قلد في فترة ما قيادة سفينة طوربيد ثم قيادة طراد . فلما توفي والده وذهب المستر اسكوث (وكان رئيس الوزراء حينئذٍ) لمقابلته تركت هذه المقابلة اثراً عظيماً في نفسه لما شاهده في الملك الجديد من الفطنة والرأي السليم . ولكن جورج الخامس ورث من عهد والده مشكلة معقدة . ففي ميدان السياسة الخارجية ، كانت المنافسة بين انكلترا والمانيا قائمة على قدم وساق . الآن الملك جورج الخامس لم ينظر الى القيصر على انه عدوٌ شخصي

كما كان يفعل والده ، وتملك كبر الامل بعد اعتلاء الملك جورج العرش ، بان يسوّي هذا النزاع العائلي على احسن وجهٍ . ولكن هذا الامل لم يلبث قليلا حتى تبدد . وأما في سياسة البلاد الداخلية ، فكان النزاع بين مجلسي اللوردات والنواب ، قد بلغ اشده . فحزب الاحرار القابض على زمام الاحكام من سنة ١٩٠٦ كان قد تبع خطة ترمي الى غرضين هما ، فرض قبول الميزانية التي اعدها لويد جورج وتعديل الدستور حتى يجرد مجلس اللوردات من قوة النقض لقرارات مجلس النواب . فبعد نزاع وانتخاب عام وافق مجلس اللوردات على ميزانية لويد جورج . ولم تكن ثمة وسيلة للتغلب عليه فيما يختص بالغرض الثاني ، الا بتهديده بتعيين ٣٠٠ لورد جديد . وكان الملك ادورد السابع قد وعد المستر اسكوث ، انه يوافق على ذلك ، اذا اقتضى الامر ، بعد انتخاب عام آخر لتبين اتجاه الرأي العام

***

فوفاة الملك ادورد ، والمسألة لا تزال معلّقة ، وضعت المستر اسكوث في مأزق ، لا سبيل الى الخروج منهُ الا بلباقة والكياسة . فرأى اولاً انهُ لا يليق ان يطلب الى الملك ان يتخذ قراراً حاسماً في موضوع خطير كهذا في مطلع حكمهِ وخاصة في فترة الحداد . وفي هذا مثل بليغ على ان وجود التاج يفعل بحكم الطبع ، فعل مسكن في حلبة النزاع السياسي ، وينفخ في السياسة شعوراً انسانيًّا قريباً من القلب . ولما كانت المعارضة تشاطر الحكومة هذا الرأي اجتمع مؤتمر خاص من زعماء الفريقين قصد الوصول الى اتفاق ، فكان سبيله الى الاخفاق بعد جدال طويل

فتحتم عند ذلك على رئيس الوزارة ان يعلم هل يعيد الملك جورج وعد أبيهِ ، ويتعهد بتعيين لوردات جدد اذ اسفر الانتخاب العام عن عودة الاحرار الى الحكم . والواقع انهُ لم يكن ثمة سبيل الى حلٍّ آخر . فاذا رفض الملك استقالت الوزارة ، وعندئذٍ يستدعي المستر بلفور زعيم المعارضة ويُطلب اليهِ ان يؤلف وزارة فيؤلفها وعند تقدمها للمجلس يحذلها فتضطرُّ الى الاستقالة . وعندئذٍ يحق للملك من الناحية النظرية ، ان يحلَّ المجلس لاجراء انتخابٍ آخر ، ولكن ذلك يزجُّ بالتاج في معارك الانتخابات ويقضي على القاعدة الاساسية التي شيّد عليها النظام الملكي الدستوري . وهذا نحوٌ كان المستر اسكوث ملزماً كلَّ العزم على اجتنابهِ ما استطاع الى ذلك سبيلاً . فاذا وعده الملك بتعيين اللوردات عند ما تقتضي الحال ذلك ، وخاض هو وحزبهُ الانتخاب مسلَّحاً بهذا الوعد السري يبقى مقام الملك محفوظاً من الاذى . قال المستر اسكوث : « فاذا خذلنا في الانتخاب لم تكن ثمة حاجة لتنفيذ وعد الملك فيبقى في طيِّ الكتمان . واذا نلنا اكثرية ، اضطرَّ اللوردات الى الاذعان ، وكذلك نجتنب ذكر اسم الملك على كل حالٍ »

ومع أن الملك جورج كان قليل الرغبة في اتباع هذه الطريقة ، رأى بعين حكمتهِ ان لا سبيل

آخر للخروج من المأزق . فاتفق على ان يحفظ وعد الملك على الكتمان وان يسعى الوزراء جهد الطاقة الى الحيلولة دون ذكر الملك في معارك الانتخاب . فلما أسفر الانتخاب عن اكثرية للاحرار اصرّ الملك على أن يعلن الوعد الذي قطعه خشية ان لا تفهم المعارضة موقفهُ اذا ظلّ هذا الوعد مكتوماً ثم تسرّب نبأه الى الصحف . وقد اذيع ذلك في كتاب ارسل الى المستر بلفور ولورد لانسدون . فغضبت المعارضة ولكنها لم تجسر عملا . فتعيين ثلاثمائة لورد جديد يضعف من مقام الارستقراطية البريطانية ، ويقضي على كلّ حال الى اقرار ما رفض مجلس اللوردات اقراره . فرأى المجلس عندئذٍ ان يذعن لمشيئة مجلس النواب واقرّ القانون المطلوب

وخرج الملك من هذا النزال وقد زادت هيبتهُ ومكانته ، لانهُ لم يحد في خلاله قيد شعرة عن عمله وهو ان يكون حكَماً منزهاً عن الغرض الخاص . فقد كان في ناحية الحكومة مستشاراً حكيماً ولكنهُ لم يقف عثرة في سبيلها ، وكان في ناحية المعارضة ، صديقاً ولكنهُ لم يكن حليفاً

***

كان حكم الملك جورج حافلاً بالمشكلات . فما كادت تحل المشكلة الدستورية على الوجه المتقدم ، حتى استفحلت المشكلة الارلندية . ذلك ان المستر اسكوث كان قد اضطر الى التحالف مع النواب الارلنديين الوطنيين في مجلس النواب بغية الفوز بأكثرية كافية ووعدهم بتحقيق آمانيهم فيما يختص «الهوم رول» اي الاستقلال الذاتي ، وهو يكاد يكون استقلالاً تامًّا لارلندا . فاقسم البروتستانت في ارلندا الشمالية انهم لن يخضعوا بحال من الاحوال لحكم دبلن وطلبوا ان يفصلوا عن سائر ارلندا ويتركوا وشأنهم . ولكن الوطنيين الارلنديين هالهم ان يفقدوا اغنى شطر من ارلندا . فاقترح المستر بلفور على الملك ان يتوسط ويعلن ان تجزيء الامبراطورية على هذا الوجه موضوع يجب ان يتاح للبلاد ان تعرب عن رأيها الصريح فيهِ . وهذا يعني ان بلفور اقترح على الملك ان يحتم على اسكوث فضّ البرلمان وخوض معترك انتخابات جديدة . اما لورد روزبري فكان رأيهُ ان رفض الملك توقيع قانون اقرّهُ البرلمان مخالف للتقاليد واستعمال لسلطة الملك في غير محله . وظلّ الجدال محتدماً خلال شتاء سنة ١٩١٣ و١٩١٤ والآراء متناقضة

الاّ ان الملك كان حكيماً ، فلم يصغ الى اصحاب الآراء المختلفة ، المخالفة للتقاليد الدستورية . وظلّ محتفظاً برباطة جأشهِ ، ولكنهُ لم يَنِ عن تذكير وزرائهِ بان الحالة في نظرهِ كانت اشدّ خطراً منها في نظرهم لانهُ باقٍ رئيساً للدولة حالة انهم خالعون جلباب الحكم عند ما يتحوّل الرأي العام عن تأييدهم ، فيحلّ غيرهم محلّهم . ومضى شهراً بعد شهر محاولاً اقناع المتطرفين من الفريقين بالتريث والتأني ، طالباً من كل فريق تخفيف الحدة في الخطب والتصريحات التي يفوهون بها ، وان ينظروا بعين الاهتمام للمصاعب التي تعترض موقف الفريق الذي يخالفهم . ودعا الى قصره في بلمورال الى زعماء الاحزاب المختلفة فلعب اللورد كرو احد زعماء الاحرار الجولف مع المستر بونارلو زعيم المحافظين

الجديد . فبدا في موقف بونارلو شيء من اللين في حلبة النعب لم يؤثر عنهُ . وامر الملك على اجتماع اسكوث رئيس الوزراء ببونارلو زعيم المعارضة وكان الاجتماع سريًّا خشية لوم المؤيدين لكل منهما فوجد كلٌّ منهما ساحبهُ اقرب الى التعقل مما كان يتصوَّر

وفي مارس سنة ١٩١٤ كادت المشكلة ان تتخذ شكلاً عسكريًّا ، وبدرت بوادر الحرب الاهلية في ارلندا ، فدعا الملك مؤتمراً من زعماء الاحزاب المتعارضة الى الاجتماع في قصر بكنهام وافتتح هو المؤتمر بخطبة مؤثرة ، ولكن النفوس كانت ثائرة فلم يسفر المؤتمر عن نتيجة ما ، ولم تنج ارلندا من نشوب الحرب الاهلية فيها سنة ١٩١٤ الاَّ بنشوب الحرب العامة على اثر حادثة سراييفو

***

في اول اغسطس سنة ١٩١٤ بعث ملك انكلترا بنداء الى قيصر روسيا يطلب اليهِ فيهِ ان يوقف تعبئة الجيش الروسي . وكان اسكوث قد كتب هذا النداء مستعيناً برجال وزارة الخارجية . قال اسكوث : فلما انتهينا من كتابتهِ ذهبت في سيارة اجرة مع تَرل الى قصر بكنهام وكانت الساعة الحادية والنصف بعد منتصف الليل . فدعي الملك من سريره وصورة الملك في ثيابهِ في تلك الليلة التاريخية من أعجب الصور التي اذكرها

وقد اصرَّ الملك في خلال الحرب ، على ان غذاء الاسرة المالكة يجب الاَّ يختلف بوجهٍ من الوجوه عن غذاء الجمهور . فلما قضت حالة الحرب بان توزّع بعض اصناف الغذاء ارزاقاً بمقتضى بطاقات اقلّها كان قصر بكنهام ينال من هذه الارزاق ما يناله بقية الناس . وامر الملك بان لا يقدَّم على مائدتهِ خمر ولا جبنة . وقد ذهب في خلال الحرب غير مرَّة الى فرنسا ، لزيارة ابنهِ وولي عهده ، وليكون وجوده هناك من بواعث النشاط والحماسة في نفوس الجنود . فلما انقضت الحرب ، اعرب المستر اسكوثٌ عن اجلالهِ للملك بهذه الكلمات :

« اما والعروش تهوي حولنا ، وقد كان بعضها قائماً على الظلم ، وبعضها مؤيداً بهيكل ضعيف من التقاليد ، فاننا نرى عرش هذه البلاد راسخاً لا يتزعزع قائماً على مشيئة الشعب البريطاني »

وقد كانت الصعاب التي واجهتها بريطانيا بعد الحرب لا تقل عن الصعاب التي واجهتها قبيل الحرب وفي خلالها . فالاضراب العام ، وفوز حزب العمال ، اقتضيا من الملك ان يبرهن مرة اخرى على مقدرته وحكمته ، لحكم منزه عن النزعة الخاصة او الحزبية . وقد اصاب في ذلك قسطاً وافراً من النجاح ، حتى انه لما مرض سنة ١٩٢٨ كانت الجماهير تقف امام قصره وهي متلهفة لاخباره ، ضارعة الى الله ان يمن عليهِ بالشفاء ، ففاقت بولائها له ما عرف عن اولاء الملوك انكلترا الذين تقدموه

وهذا كلهُ يفسر لك قول السر ستافورد كريس احد زعماء العمال المتطرفين اذ قال من عهدٍ قريب : « ان الملكية الدستورية سوف تبقى زمناً طويلاً في هذه البلاد لفضل وسيلة لاختيار رأس الدولة »

تتويج جورج الخامس

سبق الانكليز غيرهم من امم هذا العصر الى الحكم الدستوري ونزع السلطة من ملوكهم ولكنهم مع ذلك لا يزالون متمسكين بكثير من عاداتهم ورقا ليدهم القديمة كتتويج ملوكهم والباس قضاتهم الشعور المستعارة وحراسهم الثياب المقصبة . وفيما يلي وصف جانب من حفلة تتويج الملك جورج الخامس في ٢٢ يونيه سنة ١٩١١ في دير وستمنستر .

... ووقف رئيس اساقفة كنتربري ونادى قائلاً ايها السادة قدمت اليكم الملك جورج ملك هذه المملكة الذي لا شبهة فيه والذي جئتم جميعكم اليوم لكي تقدموا له الطاعة فهل انتم راغبون في ذلك . فهتف الجمع هتافاً متكرراً قائلين احفظ اللهم الملك جورج . ثم ابتدأت الخدمة الدينية وتلي قانون الايمان ووعظت وعظة مختصرة وفي ختامها تقدم رئيس اساقفة كنتربري الى الملك وقال له هل انت مستعد يا مولاي ان تقسم اليمين فقال الملك نعم وأقسم انه يحافظ على الديانة البروتستانتية ويحكم شعبه بالعدل . وسار الى المذبح وركع امامه ووضع يمينه على التوراة وقال ان كل ما وعدت به هذا افعله وأحفظه فليعني الله . وقبل التوراة ووقع صورة القسم ورجع الى كرسيه بجانب كرسي الملكة وسجدا كلاهما ثم عاد الى المذبح وخلع حلة الملك وتقدم الى عرش الملك ادورد المعترف وجلس على حجر تاريخي مشهور فسحه دين وستمنستر بالزيت المقدس والبسه مهمازه ووضع سيفه على المذبح . وصلى رئيس الاساقفة ضارعاً الى الله ان لا يتقلد الملك سيفه عبثاً بل يستعمله لخدمة الله بارهاب الاشرار وحماية الاخيار ثم ناوله اياه قائلاً اجر بهذا السيف العدل وأوقف نمو الشر واحم كنيسة الله واعن الارامل والايتام وجدد ما عتق واحفظ ما تجدد وأصلح الاثيم وأيد الصالح حتى تنمو كل فضيلة . وناوله بعد ذلك رداء الملك والكرة والصليب قائلاً فليلبسك الله رداء البر وثوب الخلاص واذا رأيت هذه الكرة موضوعة تحت الصليب تتذكر ان العالم كله خاضع لقوة المسيح فادينا ولسلطته . ثم البسه خاتم الملك في اصبعه وناوله الصولجان قائلاً تناول صولجان العدل والرحمة وليمنك الله في اجراء كل ما وهبك من السلطة وكن رحيماً ولكن لا تثنه في الحلم وعادلاً ولكن لا تنس الرحمة وعاقب الشرير واحم الصالح وقد شعبك في السبيل الذي يجب ان يسير فيه . ثم رفع التاج عن المذبح وتضرع الى الله ليبارك الملك ويتوجه بكل فضيلة ووضع التاج على رأسه قائلا ليتوجك الله بتاج المجد والبر . والحال رفع الاعيان تيجانهم من تحت مقاعدهم ووضعوها على رؤوسهم وهتفوا للملك . وجلس الملك على عرشه وجعل رجال المملكة يمرون امامه ويسجدون له واحداً بعد الآخر وأولهم رئيس اساقفة كنتربري والاساقفة ثم ولي العهد وامراء بيت الملك وكان كل منهم يرفع تاجه عن رأسه ويركع امام الملك ويقول اني اخدمك بحياتي وأكون اميناً لك حتى الموت فليساعدني الله ثم يلمس تاج الملك بيده ويقبله في وجهه . وفعل مثلهم كل رؤساء فرق الاعيان اما اعضاء تلك الفرق فبقوا راكعين في مجالسهم حاسري الرؤوس